جمـــع التكسير بين النظريـــة والتطبيق

إعـــداد

د ./ محمـــد أميـــن الروابـــــدة

قسم اللغـــة العربيـــة كليـــة الآداب

جامعـــــة مؤتـــــة بالأردن

٢٠٠٣م

جمع التكسير بين النظرية والتطبيق

يحاول هذا البحث الإجابة عن السؤالين الاتيين : هل كان في مخيلة العربي عند ذكره لجمع من جموع التكسير تلك التقسيمات التي نراها في كتب اللغة ، والقيمة العددية فيما يتعلق بالقلة أو الكثرة ؟ وهل كانت هذه المقاييس ثابتة ناتجة عن استقراء كلام العرب : شعره ونثره ، أو أن الأمر على خلاف ذلك ؟

The Broken Plurals
Between
Theory and Application

The Study attempts to answer to answer the two following questions :

(1) Did the users of Arabic take into Consideration the technical classifications and the number value concerning redundancy and redundancy ?

(2) Were the grammatical views, as to the broken Plurals, made by the ancient grammarians in accordance with the arabs, actual speech ?

مقدمـــــــــة :-

اتخذ التعبير عن مفهوم الجمعية فـي الـسلم التـاريخي أسـاليب متنوعة يمكن حصرها في ثلاث وسائل :

١- الوسيلة الأولى : أنماط كلية موجودة في الطبيعة لا دخل للإنسان فيها ، من حيث التصرف أو البناء ، أو أي واسطة لغوية أخرى ، بعـضها متداخل يمكن فرزه ، مثل : خبز ، ثمر ، شجر ، وبعضها متـداخل لا يمكن فرزه ، مثل : ماء ، هواء ، ريح .

نجد في هذا النمط الدوال المعجمية والـصرفية والدلاليـة وحـدة واحدة لا انفصال بينها .

٢- الوسيلة الثانية : اعتماد وسائط صرفية إضافية ، تتمثل فـي عمليـة الإلصاق بلاحقة " ات " لجمع المؤنث ولاحقة " ون " أو " ي ن " لجمع المذكر .

ربما كانتا لمطلق الجمع ، ثم استقلت كل واحدة منهما لجنس من الأجناس ثم عادت لاحقة " ات " لجمع كثير من المفردات ، بعضها مؤنث وكثير منها مذكر ، كما في : راديوات ، تليفزيونات ، مسجلات ، وكل الألفاظ الأعجمية بهذه الصورة .

٣- الوسيلة الثالثة : التفجير الاشتقاقي الداخلي ، مـع المحافظـة علـى الجذر الأساسي للمفرد .

في السلم التاريخي ، يفترض أن تكون فكرة التفجير الداخلي المتمثلة فـي جمع التكسير أسبق وجودا من فكرة الجمعية باللواحق ، لـسبب بـسيط ، وهو أن آليتها بسيطة لا تعدو أن تكون تغييرات فى بنية الكلمة ليصار بها إلى جمع ، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي " ونستطيع أن نقول إن جموع التكسير سبقت الجموع الصحيحة في اللغة العربية ، ذلك أن البحث المقارن فى اللغات السامية الأخرى يدلنا على هذا فقد احتفظت العبرية بعدة كلمـات جمعا يشبه ما ندعوه بصيغة منتهى الجموع ، وهي : حنامـل hanamil وتعنى : النمل ، وكذلك : عرافل ، وحلاميش ." [١]

ويقول في مواضع آخر ، " أما جمع التصحيح المذكر ، فالتزامـه بالواو والنون وبالياء والنون ، إشارة إلى أنه أحـدث عهـدا مـن جمـع

التكسير ، وذلك لأنه يشير إلى أن اللغة بدأت مرحلة جديدة تخضع فيها للقواعد المقرّرة متخلصة من الشذوذ وتعدد الألسنة " [٢] .

ويبدو أن العربي في هذه المرحلة بدأ يتطلع إلى رقي في التعبير وصار يهتم في الخطابة بجمالية التأثير ، (أدب الأذن) لا أدب العين إلا أنه وجد أن اللغة مقبولة في طبعها ، وأن الشعر وهو أرقي أنواع الوسائل التعبيرية لديه هو شعر كميّ إيقاعه محدود ، الزيادة فيه كالنقص ، فكان جمع التكسير حاجة ملحة ؛ ليقوم بوظيفة الجبائر العروضية ، لملء فراغات وخانات محدودة .

لقد وجد في جمع التكسير خاصية مطواعة تسمح للبنية أن تتوسع لملء الفراغ المناسب ، وفقا للتصعيد الآتي أسد أسَد أسُود ، أساد ، أساود ..

تعريف جمع التكسير :

تركز كتب اللغة في تعريف جمع التكسير على خاصية البناء ، وما يعتري المفرد من تغير حتمي عند إرادة الجمع ، ففي حين أن جمع التصحيح بشقيه هو سلامة المفرد من التغير في بنائه مع الاعتماد على إضافة لاحقة محدّدة ، كما فعل في التثنية ، نجد أن جمع التكسير تغير في بناء المفرد بالزيادة أو النقص .

التغير الذي يصيب المفرد عند إرادة الجمع هو السبب في تسميته تكسيرا فكأنه قد أصابه الكسر عند نقله من صيغة المفرد الذي هو عليها إلى صيغة الجمع الجديدة . " [٣]

يقول ابن يعيش " وإنما قيل له مكسّر لتغير بنيته عما كان عليها واحدة فكأنك فككت بناء واحدة وبنيته للجمع بناء ثانيا ... وهذا التغيير يكون تارة بزيادة ، وتارة بتغيير بنية الواحد من غير زيادة ولا نقص في الحروف . " [٤]

ويقول ابن السّراج " هذا الجمع يسمى مكسرا ، لأن بناء الواحد فيه قد غيّر عما كان عليه ، فكأنه قد كُسر ؛ لأن كسر كلّ شيء تغييره عما كان عليه . " [٥]

وعبّر بعضهم عن التغيير الذي يصيب المفرد عند الجمع بتغيير الآنية عند تكسيرها ، قال " إن قال قائل ، لم سميَ جمع التكسير تكسيرا ؟ قيل : إنما سميّ بذلك على التشبيه بتكسير الآنية ؛ لأن تكسيرها إنما هو إزالة التئام أجزائها ." [٦]

وسمّاه هنري فليش : التحول الداخلي ، والجموع الداخلية[٧] أي الجمع " الذي يعتمد على تغيير المصوتات (الحركات) داخل بنيه الكلمة مقابل الجمع الخارجي الذي يعتمد على الصاق لاحقة الضمة الطويلة + النون في جمع المذكر والألف والتاء في جمع المؤنث مع بقاء نطق الكلمة على ما هي عليه في المفرد ." [٨]

ورأي أن الجمع الداخلي موجود بصورة فردية في شكل محاولات في اللغات السامية الجنوبية ، وهي العربية والحبشية ، أما السامية الشمالية فلا يوجد منه إلا بعض الأصول .[٩] .

القيمة العددية لجمع التكسير :

وأما من حيث القيمة العددية ، فقد قسموا جمع التكسير إلى قسمين : جموع قلة ، وجموع كثرة ، وتذكر كتب اللغة أن أبنية القلة أربعة : أفعل ، وأفعال ، وافعلة وفعلة ، وتُجمع على أنها لعدد من الثلاثة إلى العشرة ، أما أبنية الكثرة فقد ذكر ابن هشام أنها ثلاثة وعشرون وزنا وهي للعدد من عشرة إلى مالا نهاية ، قال " وله سبعة وعشرون بناء منها أربعة موضوعة للعدد القليل وهو من الثلاثة إلى العشرة ... وثلاثة وعشرون للعدد الكثير وهو ما تجاوز العشرة " [١٠] وتجاوز بعضهم [١١] حتى ليبدو من تصفح ما كتب عن هذا الجمع أنّ الهمّ الأكبر هو في حصر أوزان هذه الجموع من خلال الرجوع إلى معاجم اللغة وأمهات الكتب على اختلاف المدارس والاتجاهات ومحاولة الظفر بوزن جديد يضاف إلى تلك التي نص عليها العلماء من قبل .

وعلى الرغم من كثرتها وتعددها تعد عند البعض قليلة إذا قيست بأبنية المفردات في اللغة ، فقد ذكر بعضهم عند حديثه عن مسوغات تكثير أبنية جموع التكسير وأسبابه أن " جموع التكسير في العربية على الرغم من تعدّدها وكثرتها تعدّ قليلة بالإضافة إلى ما للمفرد من أبنية لو رغبنا في

تحقيق أمن اللبس ، وتخليص العربية من الغموض والتعمية تماما ؛ لأن مظاهر ثرّة من مظاهر اللبس فيها تبدو بجلاء هنا وهناك ، وأن العرب كانوا على حق في تكثير هذه الأبنية ، ليحافظوا على دلالاتها المختلفة بالإيماء إلى أبنية مفرداتها . " [١٢] وكأن الخلل في جموع التكسير يكمن في أبنيتها وعددها ، الأمر الذي أبعدهم – في ظني – عما يجب أن يبحثوا فيه ، وهو أسباب هذا التعدد في هذه الجموع المتعددة ، وهل كان الأمر مرتبطا بالعدد ودلالته ، فانصب التفكير على ما يرمز إليه كلٌ منهما عدديا ؟ وهل صحيح أن منتج اللغة عند استحضار المعاني التي يقصدها في كلامه متضمنة صورة لجمع ووجوهه كان في ذهنه ربط بين هذا البناء ودلالته العددية ، مفترضا دلالة ذلك عند من يتلقى الكلام ويظنه فيه . وأن هذا الأمر يتضح مزيد اتضاح عند اختيار جمع معين بدل جمع آخر ، أم أن الأمر على خلاف ذلك ، فلا يتغير في الأمر شيء يبقى منتج اللغة والمتلقي على اتصال بالمعني المقصود لديهما ؟

أنماط جموع التكسير :

يلاحظ أن هناك نمطين مختلفين فيما يخص البناء :

١- نمط ضيق مقتصر على البناء المجرد مع الاعتماد على الحركة كوسيلة وحيدة للتفريق بين المفرد والجمع ، مثل : أسَد أسُد .

٢- نمط موسع ، يعتمد على الزوائد أو اللواصق في بناء المجتمع مثل : أشقياء في جمع : شقيّ .

كما نجد تحويرات في بنية الاسم للخروج بجمع ، منها :

أ- تحوير في مكان الأصوات بإبدال صوت مكان آخر ، مثل : ثور ثيرة .

ب- تحوير يقوم على إطالة حركة قصيرة ، مثل : جمل جمال .

ج – تحوير يقوم على تفجير داخلي غير نمطي تكاثرت أشكاله وتعددت صوره بطريقة مدهشة مثل : قاض قضاة .

يحكم هذه التغييرات مبدأ السهولة في التركيب الجديد ، يصحبه سهولة في النطق لاعتماد جلّة على إطالة أصوات المدّ وسطا أو آخرا .

الحاجـــة إلى جمع التكسير :

في اللغة قوالب متعدّدة موروثة لها خواص معينة حاول القـدماء المحافظة عليها ، منها : قالب الخطابة وما سمع عن العـرب مـن النثـر وقالب الشعر ، وهو القالب الأكثر موروثا والأكثر حاجة إلى مفردات لهـا خاصية معينة تحكمها أوزان الشعر وقوالبه .

نجد عند استقرائنا للجمع الموروث أن جمع المـذكر السالم لـه خاصية معينة لا يمكن الخروج عليها ، ولجمع المؤنـث السالم خاصـية معينة ــ أيضا ــ لا يمكن الخروج عليها ، أما جمع التكسير فهو وإن كانت له خاصية تختلف عنهما وهي تفكيك الكلمات كيفما اتفق بـدون منهجيـة معينه في الأعم الأغلب ، وإن حاول العلماء أن يجـدوا لبعـضها قواعـد وأقيسه معينه ، إلا أنها خاصية مطاوعة يجد الشاعر فيها مـادة يـستطيع التصرف بها لسد حاجة من حوائجه الملحة ، وأقصد بذلك خانات فارغـة النص الموروث بحاجة إليها لا تخضع لمنطق معـين ، وقـوافي محـدّدة يلتزمها الشاعر لا يستطيع الخروج عنها . في قول الفرزدق [١٣] .

وكمْ تنعمْ الأضياف عينا وتصبحُ في مباركها ثقالا

فقد استعمل " الأضياف " بدلا من الضيوف لا للدلالة العددية وإنما لأنه وجد أن " الأضياف " دون الضيوف هي التى تقيم الوزن المطلـوب ، ومثل ذلك في قول كثيّر عزة [١٤] .

فكم من يتامي بُؤّس قد حبرتُنيا وألبستها من بعد عُرْي ثيابيا

فذكر في جمع بائس : بُؤّس ، ولم يقل بؤساء ، وذكر فـي جمـع ثوب : ثياب ولم يقل : أثواب ، للحاجة نفسها . وقولـه[١٥]

فقد فُتّ مُلتجا كأنّ نَبيجه سعال جوّ أعيت عليه الطبائب

فجاء بجمع طبيب على : طبائب ، ولم يقل : أطباء . وقوله [١٦]

وإن طلابي عانسا أمّ ولدة كممّا تُمنيني النفوس الكواذب

فجاء بجمع كاذب على كواذب ، ولم يقل كذبة ، أو كذّاب مثلاً ، كما نجـده يستعمل في جمع أكمة : آكام ، يقول [١٧] .

تذكرت سُعدي و المطي كأنهُ بأكام ذي ربط غطاط قواربه

بينما يذكر خفاف بن ندبة في الأصمعيات في جمع أكمة : أكَم يقول [١٨].

علا الأكَمَ من وابلٍ بعد وابلٍ فقد أرهقت قيعانه كلَّ مُرْهق

لا لشيء إلا أنه وجد أن الخانة تتطلب هذه المقاطع الموجودة في " الأكم " لا الموجودة في : " الآكام " .
في قول خفاف بن ندبة أيضا [١٩].

وأبدى شهور الحج منها محاسنا ووجها متى يَحلل له الطيبُ يشرق

فقد جاء بجمع " شهر " على وزن من أوزان جموع الكثـرة ، وهـو وزن "فعول" مع أن أشهر الحج هي أربعة : محرم وذو القعدة وذو الحجة وواحد فرد وهو رجب كما في قوله تعالى " الحج أشهر معلومات " [٢٠] وهذا متفق مع الدلالة العددية لوزن " أفعل " فهل تخطىء خفافا لأنه استعمل " شهور " بدلاً من " أشهر " أم نقول : إن " شهور " جبيرة عروضية لتصحيح الوزن الشعري دون النظر إلى الدلالة العددية .

وهذا مما تمتلئ به خزانة الأدب بحيث يُعدّ نمطا مقيسا يغنينا عـن تتبعه في مظانه المختلفة ، ولا أدلّ على ذلك من العودة ثانية إلى ما ذكرنا من أشعار والنظر إلى ما ورد فيها من جموع وما تحمله من دلالة .

ولا تقل القافية عن الوزن الداخلي للقصيدة في تقييد حركة الشاعر فقد عمّ نظامها بين الناس في جميع الأمصار والإعصار وكان الشعراء أكثر خضوعا وإذعانا لسلطانها فالإخلال بها معيبة وناقـصة تنـزل بـصاحبها وتحطه عن درجة أقرانه ولذلك كان حريصا على أن يلتزمها ولا يتعداها .

فيما يلي مُقطعتان لشاعرين من شعراء العرب الأولى في خمـسة أبيات لمهلهل في حرب البسوس ينعي فيها أخاه كليبا وهي :[٢١] .

يا حار لا تجهل على أشياخنا إنا ذوو السورات والأحـلام
ومنا إذا بلغ الصبيُ فطامـه ساس الأمور وحارب الأقوام
قتلوا كليبا ثم قالوا : أربُعوا كذبوا وربّ الحلّ والإحـرام

حتى تُبيد قبيلـــــة وقبيلـــة قهرًا ونفلق بالسيوف الهـــام
ويقُمْن ربات الخدور الحواسر يمْسحْن عرض ذوائب الأيتام

والأخرى قالها : أبو النشناش النهشلي وهي في ثمانية أبيات [٢٢] .

وسائلة أين الرحيلُ وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
وداوية بهماء يخشي بها الرّدي سرت بأبي النشناش فيها ركائبه
ليُدرك ثأرًا أو ليـدْرك مغنمـــا جزيلاً وهـذا الدهرُ جـم عجائبه
إذا المرء لم يسْرح سواما ولم يُرِحْ سوامًا ولم تعطف عليـه أقاربـه
فللموت خير للفتى من قعـوده فقيرًا ومن مولى تـدبّ عقاربـه
ولم أر مثل الهم ضاجعة الفتى ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فمت مُعدما أو عش كريما فإننى أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه
ولو كان شيء ناجيا في مَنية لكان أثير يـوم جاءت كتائبه

الأولى تضمنت جموع تكسير بعضها للقلة وبعضها الآخر للكثرة ، فمن جموع القلة " أشياخ " " أحلام " و " أقوام " و " أيتام " وكلهـا علـى وزن أفعال . ومن جموع الكثرة : " سيوف " " خدود " " حواسر " " ذوائب" ، والتزمت ثلاثة أبيات منها هي : الأول والثاني والخامس بوزن من أوزان القلة وهو وزن " أفعال " مع أن الحديث كله يدور حول الكثرة فـي العـدد والعُدة .

أما المقطعة الأخرى فلم تحتو على جمع من جموع التكسير البتـة ما خلا القافية ، فقد جاءت خمسة أبيات من الثمانية قافيتهـا جمعـا مـن جموع التكسير ، أربعة من جموع الكثرة ، وهـي : مذاهبـه ، ركائبـه ، عجائبه ، كتائبه ، وواحد من جموع القلة ، وهو للكثرة وليس للقلة . فلـو كانت الدلالة العددية هي المقصد لتساوت القافية جميعها في أن تكون للقلة أو للكثرة .

تعدّد أشكال جموع التكسير .

لقد تكاثرت الأشكال وتعدّدت الصور بصورة مدهشة[٢٣] بحيث يحار المرء في تقنين ذلك تقنينا محكما والخروج ببعد يستطيع من خلاله أن يقرر شيئا .

نلحظ في أحايين كثيرة تعدد جموع كثير من الكلمات ، كما نلحظ التزام العرب بجمع كلمة جمعا واحدا سواء أكان للقلة أم للكثرة . فيتوقف المرء أمام ذلك محاولا البحث عن سبب يقتنع به ، فلا يجد إلا ترديد كلمات من سبق . ترد عليه أحيانا إجابات متناغمة مع طبيعة هذه اللغة ، ذات الفروع المتشعبة والأصول المتعدّدة فالتى جعلتها في حركة دائبة .

وتتراءى أمام ناظريه في الجانب الآخر إفلات هذه الجموع من قوالب معينة تنول إليها الكلمات في بداياتها الأولى ، فتحت الباب أمام منتج اللغة أن يأتي بجموع حسبما اتفق ، دون مراعاة لقاعدة ، أو خوف من قياس أو وجل من أن يكون هذا الجمع مخالفا لما قالته العرب ، وإلا فما الذي جعله ــ مثلاً ــ يجمع اسم الشهر المعروف رمضان على : رمضانات ، أرمضة ، أرامضة ، أرامض ، رماضي ، رماضين ، أرمض ، رمضانون ، ويقول في جمع السبت أحد أيام الأسبوع : أسبت ، سبوت ، أسبات ، أسابيت [٢٤] .

ويجمع " نجد " على : أنجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونُجُد[٢٥] والشيخ " يجمع على شيخة ويجمع على شيوخ ويجمع على أشياخ ... والحبّ وتعنى المحبوب تجمع على : أحباب ، وحبّان ... وحبوب وحبيبة ، والرغيف يجمع على : رُغْف ورُغفان ، وأرغفة . [٢٦]

إنّ نظرة فى جمع ما كان على وزن " فعل " مما ورد فى كتب اللغة ، كمقياس لغيره من الأوزان تدلنا دلالة قاطعة على مدى تعدد أشكال هذه الجموع وكثرة صورها ومدى سعتها فالمسموع في قلة " فعَل " فى غير الأجوف على " أفعال " كأنف وأناف ، وفى كثرته على " فعلان " كجحشان ورئلان [٢٧] وفعلان كظهران وبطنان وفعلان بالكسر أقلهما وفعلة كغردة في غرْد وهو الكمأة ، وكذا جبأة ، وفقعة في : جبء وفقع للكمأة أيضا " وفعُل " كسُقُف وذُهن ثم ذكر سيبويه أن القياس في " فعل " غير ما ذكر يعلم بالسمع فلو اضطر شاعر أو ساجع فى جمع " فعُل " إلى شيء مما ذكرنا أنه قياسه فلا عليه أن يجمعه عليه وإن لم يسمع .[٢٨]

وفي الجانب الآخر من الذي أعطى الحقّ لمحقق كتاب الأصمعيات مثلا في تخطئة صاحب الخزانة في جمع " فلذة " على " فلذات " غير القياس،

على بناء اشتهر أكثر من غيره ؟ ، فيقول : " وهو فيما يبدو لنا خطأ فإن جمع فلذ أفلاذ وجمع فلذة : فلذ ، مثل سدرة وسدر . " [٢٩]

بل إنّ الأمر امتدّ إلى كثير من الناس في هذا العصر فنراهم يجمعون مفردات على قياس وزن مشهور دون النظر إلى وروده عن العرب أو مطابقته لمقاييسهم فيقولون ــ مثلاً ــ في جمع خليجي : خلايجة . وفي تركي : تراكوة ، وفي أردني : أرادنة ، وفي مصري : مصاروة : ويقولون في جمع بسكوت وهي لفظة أعجمية : بساكت وفي جمع بلد : بلادين ، وفي جمع إشارة [٣٠] أشاير ، وفي مسؤولية : مسائل ، وفي سيارة : سياير وفي دولاب : دوليب . وغيرها .[٣١]

أمامنا ــ كمتلقين لهذه اللغة البنية الصرفية ، والدلالة العددية في جمع التكسير ، وكما قلنا فإن البنية الصرفية وضعها العلماء للتمييز بين جمعي القلة والكثرة ، والدلالة العددية للإشارة إلى أن جمع القلة ما دل على عدد من الثلاثة إلى العشرة وجمع الكثرة ما دل على ما فوق العشرة إلى مالا نهاية ، فهل كانت هذه المقاييس ثابتة ناتجة عن استقراء لما ورد عن العرب شعراً أو نثراً ؟ وهل القيمة العددية للجمع أمر حاسم عند استقراء بعض صيغ جموع التكسير ؟ وهلْ وظفت هذه المعايير توظيفا دقيقا . يجب لم يخرج عنها إلا ما ندر من أمثلة العرب ؟ أو أن الأمر على خلاف ذلك ؟ فاستعملت العرب البناء الموضوع للقليل في موضع الكثير ، والعكس صحيح ، وأن الجموع كما يقول ابن يعيش " قد يقع بعضها موضع بعض ، ويستغنى ببعضها عن بعض " [٣٢] أو كما يقول ابن السراج : " ويتوسعون فيها فمنها ما يستعمل في غير بابه ، ومنها ما يقتصر به على بناء القليل عن الكثير ، والكثير منها ما يستغني منه بالقليل عن الكثير ، فالذي يستغني فيه بناء الأقل عن الأكثر فنجده كثيراً والاستغناء بالكثير عن القليل نحو الثلاثة شسوع ، وثلاثة قروء " [٣٣] .

وهو يقصد بذلك قوله تعالى " والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ." فقد حلت صيغة " فعول " في قوله " قروء " وهي من أوزان الكثرة محل " أقروء " بوزن " أفعل " الدلالة على القلة ، تمييزا للعدد " ثلاثة " .

وللخروج من هذا المأزق رأي ابن السّراج أن القياس يتطلب أن يستغني بجمع الكثرة عن القلة ، من منطلق عددي ؛ " لأن القليل داخل في

الكثير " . [٣٥] فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا فصل بينهما أصلا إذا كانت النصوص المستقراه لا تقبل ذلك ؟

إن كثرة تبادل صيغ جموع التكسير فيما ورد عن العرب ، وفي آي الذكر الحكيم يدل دلالة قاطعة على أن القليل والكثير لم يكن في مخيلة العربي ، وأن السياقات اللغوية وحدها هي الدالة الأكيدة على الكثرة والقلة.

في بيت حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغُر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قالوا : وكان حقه أن يستعمل السيوف موضع الأسياف "[٣٦] .

وجاء في كتاب المحتسب " كان أبو على ينكر الحكاية المروية عن النابغة وقد عرض عليه حسان بن ثابت شعره وأنه صار إلى قوله :

لنا الجفنات ...

قال له النابغة : لقد قللت جفانك وسيوفك .

قال أبو على : هذا خير مجهول ، لا أصل له ؛ لأن الله تعالى يقول " وهم في الغرفات آمنون " [٣٧] ولا يجوز أن تكون الغرف كلها التي في الجنة من الثلاثة إلى العشرة " [٣٨] .

وكذلك ليس المرد بقوله تعالى " إن المسلمين والمسلمات " [٣٩] العشرة فما دونها وإنما الإخبار عن هذا الجنس قليله وكثيره " [٤٠] .

ثم هل كان في مخيلة امرئ القيس تلك الدلالة العددية عندما قال : [٤١] .

وليل كموج البحر أرخي سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فدلّ على كثرة الهموم بقوله " أنواع " وهي على وزن من أوزان جموع القلة .

ولا يمكن لنا أن نفسر دلالة " أنواع " على الكثرة بأنه لم يرد لمفردها إلا هذا الوزن من الجموع بل لابد من القول إن " أنواع " هنا دلت على الكثرة لسببين الأول : ارتباطها بهموم والآخر : أن السياق كله يدل على ذلك .

وهل كان في مخيلة عمرو بن معد يكرب تلك الدلالة أيضا وهو يتغزل بقوله : [٤٢]

وأبكارت لهوتْ بمنٍّ حينا نواعم في أسرتها الرُّدوع

أمسّي حولها وأطوف فيها وتعجبني المحاجر والفروع

وهل يمكن لنا أن نتمثل معنى هذين البيتين إذا التزمنا بمبدأ القلة والكثرة في الجموع الواردة فيه : أبكار ، نواعم ، محاجر ، فروع ؟

ونري في الجانب الآخر مفردات وردت في اللغة يكتفي في جمعها ببناء القلة فقط ، ومفردات أخرى يكتفي في جمعها ببناء الكثرة فقط ، يقول الأنباري " قيل " إنما جاز أن يكتفي ببناء القلة عن بناء الكثرة نحو : قلم وأقلام ورسن وأرسان وأذن وآذان ... وأن يكتفي ببناء الكثرة عن القلة نحو : رجل ورجال وسبع وسباع ... لأن معني الجمعية مشترك في القليل والكثير ، فجاز أن ينوي بجمع القلة جمع الكثرة لاشتراكهما في الجمع " .[٤٣]

وفي هذا المعني يقول ابن مالك :

أفعلة أفعُلٌ ثم فعلة ... ثمّت افعال جموع قلة

وبعض ذي بكثرة وضعايفي ... كأرجل والعكس جاء كالصفي

قال ابن عقيل : قد يستغني ببعض أبنية القلة عن بعض أبنية الكثرة كرجل ورجال وقلب وقلوب " [٤٤] فأقلام وأذان - مثلا وهما لجمع القلة لم تجمع علي صيغة من الصيغ الخاصة بجمع الكثرة . ورجال وقلوب في القلة والكثرة مع أن صيغتي : فعال وفعول من الصيغ الغالبة في الكثرة ، فاكتفوا بهما في الدلالة على النوعين عند تكسير الكلمتين ، ولم يجمعوا رجلا وقلبا على صيغة القلة .[٤٥]

يقول شوقي ضيف " ولو أنه ثبت في سليقة العرب القدماء أن صيغ جمع التكسير موزعة بين صيغ قلة وكثرة ، لأضافوا الى صيغ الكثرة الأولى [٤٦] صيغا للقلة ، ولصيغ القلة الثانية [٤٧] صيغا للكثرة ولكنهم لم يصنعوا ، مما يدل على أنه لم يثبت شيء في الإحساس بذلك في فطرهم وسلائقهم ." [٤٨]

إن استعمال القليل في موضع الكثير ، والعكس جائز عند البلاغين ، ويكون عندهم من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته الكلية أو الجزئية ، واستعماله مطرّد .[٤٩] حيث يوجد في العربية شواهد كثيرة " وضع فيها ما يسمي بجمع القلة موضع جمع الكثرة أو العكس، إذ استغني بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية في الغالب ، والقول نفسه في الاستغناء بهما عن جمعي التصحيح ، أو العكس وأن فيها شواهد أخري وضع فيها المفرد موضع الجمع أو العكس لنكتة بلاغية أيضا . " [٥٠]

وقد أنكر شوقي ضيف أن يكون ذلك لنكتة بلاغية ، قال " ولا مرجح يسوغ أن يقال إنها تستعمل تارة استعمالا حقيقيا وتارة استعمالا مجازيا . "[٥١]

ركز بعضهم على القرينة والسياق ، لا البنية الصرفية وعدّها وسيلة من وسائل معرفة مدلول الجمع فكثيرا ما يصرف السياق جمع القلة إلى جمع القلة إلى جمع الكثرة . " [٥٢] في قوله تعالى " وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين " [٥٣] فـ " الأنفس " و " الأعين " من أبنية جموع القلة ، لكن السياق يوضح أنهما يدلان على الكثرة ، وكذلك قوله تعالى " هو أعلم بكم إذ أنشأكم في الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم : " [٥٤] فإن " أجنة " بوزن " أفعله " من البنية القلة ، لكنه في الآية يدل على الكثرة .

وأضاف بعضهم دلائل أخري " كأن تسبقه ال " الدالة على تعريف الجنس " [٥٥] . كقوله تعالى " وأحضرت الأنفس الشح " [٥٦] وقوله " ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفرّ عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار " [٥٧] وقوله " وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . " [٥٨] وقوله " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . " [٥٩] فكلمات " الأنفس " " الأبرار " " الأفئدة " " الأعين " بصيغ جموع القلة وجعلتها " ال " الاستغراقية دالة على الكثرة المفرطة .[٦٠]

أو أنه يضاف إلى ما يدل على الكثرة كقوله تعالى " يا أيها الذين أمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة . "[٦١] وكقوله تعالى " يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . "[٦٢] وقوله تعالى " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم " [٦٣] وقوله تعالى " وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله . " [٦٤] فالكلمات " أنفسكم " " أيديكم " "أيمانكم" " ألسنتكم " " أنفسكم " بصيغ جموع القلة ، وقد أكسبتها الإضافة الدلالة على الكثرة .

ويبدو من خلال الدلائل المتعددة التي ذكرت أن الهدف الأساس منها هو محاولة إيجاد وسائل أخري تشير إلى الدلالة العددية غير التقسيم الجبري لأبنية القلة والكثرة الذي نجده في كتب اللغة ، لعدم اطراده .

ونلحظ اضطراب الأقوال في مفردات بعض جموع التكسير " فالأساطير جمع على الأسطورة كما جاء في لسان العرب [٦٥] وهي أيضا جمع الأسطارة ومعناها : الترهات ، وكان الأخفش يقول : قال بعضهم : وأحدها

أسطورة ، وقال آخرون : أسطارة ، وقال آخرون : أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر ، وقيل إسطير قال : ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد . " (٦٦)

وقال أبو عبيدة : جُمع : سطر على أسطر : ثم جمع : أسطر على : أساطير وهذا باب جمع الجمع ، كالرجال والجمالات والأقاويل والبيوتات .(٦٧) وقد جاء في كتب اللغة جموع لا واحد لها مثل : العبابيد والمذاكير والأبابيل وقد ذكر لأبابيل ثلاثة مفردات : إبيّل وأبوّل وإبّالة .(٦٨) وأحيانا يأتون بجموع كسّرت الأحاد عليها واللفظ فيها واحد مما يؤكد أن العناية بواحد جمع التكسير غير واقعة ، وأن السياقات اللغوية تلعب الدور الأساس في الدلالة العددية من ذلك ما حكاه سيبويه (٦٩) في قولهم : ناقة هجان ، ونوق هجان ، ودرع دلاص وأدرع دلاص (٧٠) وقالوا ... في جمع شمال ، وهي الخليقة والطبع : شمال ... وقالوا في تكسير الفلك : الفلك فكسروا فعلا على فعل ، فمجيء الجمع على لفظ الواحد يدل على قلة حفلهم بالفرق بينهما من طريق اللفظ وأنهم اعتمدوا في الفرق على دلالة الحال ومتقدم ومتأخر الكلام . " (٧١)

وأخيراً في الموروث عن العرب في اختيارات الأصمعي نلحظ ورود جموع كثير من الكلمات في بيت واحد من الشعر بعضها من أوزان القلة وأخرى من أوزان الكثرة ، منها قول عوف بن عطية التيميّ : (٧٢) .

وتشربُ أسآر الحياض تنوفيا ... وإن وردت ماء المريرة اجما

أتأكل أشباه المغازل ذمتي ... ولما تكن فيها الرّباب عماعما

وقول سوار بن المضرّب : (٧٣)

نعشتْ به أزمّة طاويات ... نواج لا تبين على اكتنان

تثيرُ عوازب الكُدريّ هنا ... كأن مناجيا قمرُ الأفانـي

وقول أسماء بن خارجة : (٧٤)

أو لم تجرّبني العواذل أو ... لم أبلُ من أمثالها حسبي

ما ضرّها أن لا تُذكّرني ... عيْش الخيام ليالي الحبّ

ما أصبحت في شرّ أخبية ... ما بين شرق الأرض والغرب

عرف الحسان لها جويرية ... تسعى مع الأتراب في اتب

وقول أعشى باهلة : (٧٥)

وتفزعُ الشولُ منه حين يفجئوها حتى تقطع في أعناقها الجرزُ

وقول مُهلهل : (٧٦)

ويمْنَ ربّاتُ الخدور حواسرا يمْسَحْن عرْض ذوائب الأيتام

وقول علباء بن أرقم بن عوف : (٧٧)

أمن أجل كبش لم يكن عند قرية ولا عند أذواد رتاع ولا غنم

وقول عمرو بن معد يكرب : (٧٨)

وأبكار ليــوت بمهن حينــا نواعم في أسرتنــا الرُدوع

وغيرها من الأبيات التي حفلت بهــا الأصــمعيات وغيرهــا مــن دواوين العرب مما ذكر في ثنايا البحث ، فهل كــان فــي مخيلــة هــؤلاء الشعراء تلك التقسيمات الفنية التي نراها في كتب اللغة ، والقــيم العدديــة المتعلقة بالكثرة والقلة ، أو الأمر ــ كما يبدو للعيان ــ على خلاف ذلــك ، وأن السياقات اللغوية هي الركيزة الأساس في تلمس دلالة هذا الجمع على القلة أو الكثرة ؟

إن الأخذ بهذا المبدأ يغنينا عن التأويلات ويبعدنا عن التمحل فــي تلمس تلك الفروقات العددية في الأوزان ومحاولة تبرير هذا الاســتخدام أو ذاك بمبدأ ربما يطلق على طائفة قليلة ممــا ورد عــن العــرب ، لكننــا لا نستطيع أن نجعله قياسا مطردا .

الهوامـــــش

١ــ فقه اللغة المقارن ص٩٧ .
٢ــ نفسه ص١١١ .
٣ــ النحو الوافي ص٦٢٦ .
٤ــ شرح المفصل ٦/٥ .
٥ــ الأصول في النحو ٤٢٩/٢ .
٦ــ أسرار العربية ص٦٣ .
٧ــ العربية الفصحي ص٦٦ .
٨ــ نفسه هامش (١) .
٩ــ نفسه ص٦٦ وانظر : فقه اللغة المقارن ص٩٥ ومدخل إلى نحـو اللغـات السامية المقارن ص١٢٤ و ١٥٢ و ١٥٨.
١٠ــ أوضح المسالك ٢/ ٢٦٧ .
١١ــ الكتاب ٣/ ٥٦٧ وما بعدها . وتيسيرات لغوية ص٥٩ والعربية الفـصحي ص٦٦ .
١٢ــ جموع التكسير في العربية ، كثرة أبنيتها وتعددها ص٧ .
١٣ــ لسان العرب : مادة : " نعم " .
١٤ــ الديوان ص٢٨ .
١٥ــ نفسه ص١٣ .
١٦ــ نفسه ص٣١ .
١٧ــ نفسه ص٣١ .
١٨ــ الأصمعيات ٢٥/٢ .
١٩ــ الأصمعيات ٢٢/٢ .
٢٠ــ سورة البقرة آية ١٩٧ .
٢١ــ الأصمعيات ١٥٦/٢ .
٢٢ــ الأصمعيات ١١٨/٢ ــ ١١٩ .
٢٣ــ العربية الفصحي ٨٩ .
٢٤ــ دراسات في فقه اللغة ٣٣٥ ــ ٣٣٦ .
٢٥ــ لسان العرب مادة : نجد .

٢٦ــ فقه اللغة المقارن ص٩٥ .

٢٧ــ جمع " رأل " وهو ولد النعامة . اللسان مادة " رأل " .

٢٨ــ انظر في ذلك . الكتاب ١٧٦/٢ و ١٧٧ والمقتضب ١٩٥/٢ ، ١٩٦ .

٢٩ــ الأصمعيات ٢/ ٩١ هامش رقم ٢٤ .

٣٠ــ يخصون : الإشارة الضونية .

٣١ــ سمعت ذلك من أساتذة في اللغة من جنسيات مختلفة أثناء عملي في سلطنة عمان / كلية التربية بصحار في العام الدراسي ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣ .

٣٢ــ شرح المفصل ١٠/٥ .

٣٣ــ الأصول ٤٣٠/٢ وانظر : الكتاب ١٧٩/٢ وشرح الشافية ٩٣/٢ وشرح المفصل ٢٥/٢ وعلل النحو ص٦٩٦ وارتشاف الضرب ١٦٠/٢ .

٣٤ــ البقرة آية ٢٢٨ .

٣٥ــ الأصول ٤٣٠/٢ وانظر : ارتشاف الضرب ٤٠٩/١ .

٣٦ــ شرح المفصل ١٠/٥ وانظر : المقتضب ١٨٨/٢ .

٣٧ــ سبأ الآية ٣٧ .

٣٨ــ المحتسب ١٨٧/١ .

٣٩ــ الأحزاب آية ٣٥ .

٤٠ــ شرح المفصل ١٠/٥ .

٤١ــ شرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٤ .

٤٢ــ الأصمعيات ١٧٣/٢ .

٤٣ــ أسرار العربية ص٣٥٨ .

٤٤ــ شرح ابن عقيل ٤٦٥/٢ ، ٤٦٦ .

٤٥ــ النحو الوافي ص٦٢٩ .

٤٦ــ يقصد أوزان : فعْل ، مثل كتْب ، وفعول ، مثل : قلوب ، وفعال مثل : رجال .

٤٧ــ يقصد أوزان : أفعال مثل : أعناق ، وأفعلة ، مثل : أفندة ، وأفعل ، مثل : أرجل .

٤٨ــ تيسيرات لغوية ص٦٠ .

٤٩ــ النحو الوافي ص٦٢٩ .

٥٠ــ جموع التكسير في العربية ، كثرة أبنيتها وتعددها ص٣ .

٥١ــ تيسيرات لغوية ص٦٣ .
٥٢ــ النحو الوافي ص٦٢٧ .
٥٣ــ الزخرف آية ٧١ .
٥٤ــ النجم آية ٣٢ .
٥٥ــ جامع الدروس العربية ٢/٢٨ .
٥٦ــ النساء آية ١٢٨ .
٥٧ــ آل عمران آية ١٩٣ .
٥٨ــ النحل آية ٧٨ .
٥٩ــ غافر آية ١٩ .
٦٠ــ تيسيرات لغوية ص٦٣ .
٦١ــ التحريم آية ٦ .
٦٢ــ الحديد آية ١٢ .
٦٣ــ الروم آية ٢٢ .
٦٤ــ البقرة آية ١١٠ .
٦٥ــ اللسان مادة " سطر " .
٦٦ــ سر صناعة الإعراب ص٦١٠ .
٦٧ــ اللسان مادة " سطر " .
٦٨ــ فقه اللغة المقارن ص١٠٦ .
٦٩ــ الكتاب ٢/ ٢٠٩ .
٧٠ــ أي : برّاقة .
٧١ــ سر صناعة الإعراب ٦١١ ــ ٦١٢ .
٧٢ــ الأصمعيات ٢/ ١٦٨ .
٧٣ــ الأصمعيات ٢/ ٢٤٢ .
٧٤ــ نفسه ٢/٤٩ .
٧٥ــ نفسه ٢/٨٩ .
٧٦ــ نفسه ٢/١٥٦ .
٧٧ــ نفسه ٢/١٥٨ .
٧٨ــ نفسه ٢/١٧٣ .

مراجـــع البحـــث

١ــ الأستراباذي ، رضي الدين : شرح شافية ابن الحاجب . تحقيق : محمد نور الحسن ، ومحمد الزخراف ، ومحمد محي الدين عبد الحميد بيروت ١٩٦٢ .

٢ــ الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، الأصمعيات . تحقيق أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر الطبعة السابعة ١٩٩٣ .

٣ــ ابن الأنباري ، أبو البركات كمال الدين عبد الـرحمن ، أسـرار العربيـة . تحقيق : محمد بهجت البيطار دمشق ١٩٥٧ .

٤ــ الأندلسي ، أبو حيان النحوي ، ارتشاف الضرب من لسان العرب . تحقيق : رجب عثمان محمد ، مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٨ .

٥ــ ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، سر صـناعة الإعـراب . تحقيـق : حـسن هنداوي دمشق ١٩٨٥ .

٦ــ ابن جني أبو الفتح عثمان ، المحتسب في تبيين وجوه شـواذ القـراءات والإيضاح عنها . تحقيق : على النجدي ناصف وأخرين القاهرة ١٣٨٦هـ .

٧ــ حسن عباس ، النحو الوافي . دار المعارف ، الطبعة الثالثة .

٨ــ الحموز ، عبد الفتاح . جموع التكسير في العربية ، كثرة أبنيتها وتعددها . مخطوطة المؤلف نفسه .

٩ــ الزوزني ــ أبو عبد الله الحسين بن أحمد ــ شرح المعلقـات الـسبع . دار الجيل ، بيروت .

١٠ــ السامرائي ، د. إبراهيم ــ فقه اللغة المقارن . دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ .

١١ــ ابن السراج ، أبـو بكر محمد بن سهـل . الأصول في النحو . تحقيق . د. عبد الحسين الفتلي . مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ١٩٩٩ .

١٢ــ سيبويه ، أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب . تحقيـق عبـد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

١٣ــ الصالح ــ د. صبحي . دراسات في فقه اللغة ، بيروت ١٩٨٣ .

١٤ــ ضيف ، د. شوقي . تيسيرات لغوية ، عالم الكتب .

١٥ــ ابن عقيل ، بهاء الدين بن عقيل ، شرح ابن عقيل . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

١٦ــ الغلاييني ، الشيخ مصطفي ، جامع الدروس العربية ، المكتبة العصرية ٢٠٠٢ .

١٧ــ فليش ، هنري . العربية الفصحي دراسة في البناء اللغوي ، تحقيق وتعريب : د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ١٩٩٧ .

١٨ــ كثير عزة ، ديوان كثير . شرح عدنان زكي درويش ، دار صادر بيروت .

١٩ــ المبرد ــ محمد بن يزيد ، المقتضب . تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب بيروت .

٢٠ــ أبن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر بيروت .

٢١ــ موسكاتي . سباتينو ، مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن ، ترجمة ، د.مهدي المخزومي و د. عبد الجبار المطلبي ، عالم الكتب الطبعة الأولي ١٩٩٣.

٢٢ــ أبن هشام ، أبو محمد عبد الله بن جمال الدين ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ١٩٤٩

٢٣ــ الوراق . أبو الحسن محمد بن عبد الله ، علل النحو . تحقيق : محمود محمد محمود نصار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولي .

٢٤ــ ابن يعيش ، يعيش ، شرح المفصل ، بيروت .